الفصل الرابع

وسائل الإعلام

الفصل الرابع

وسائل الإعلام

مدخل:

يعتبر الإعلام - وخصوصا في أيامنا هذه - من أخطر المؤسسات تأثيراً على المجتمعات والشعوب، ومن ثم فهو من الجهات التي توليها الحكومات والجماعات أهمية قصوى؛ نظراً لتعدد وسائله، من صحافة وإذاعة وتليفزيون ومطبوعات، ونظراً لسهولة وصول هذه الوسائل إلى قطاعات عريضة جدا من المجتمعات المختلفة، حيث تفعل فعلها في عقول الناس ونفوسهم، ومن ثم تؤثر في اتجاهاتهم، ومن ثم في مواقفهم التي يتخذونها حيال كثير من القضايا، يستوي في ذلك صغيرهم والكبير، غنيهم والفقير، متعلمهم والجاهل.

«وقد لا نغالي إذا قلنا بأننا نعيش اليوم مرحلة الدولة الإعلامية الواحدة التي ألغت الحدود، وأزالت السدود، واختزلت المسافات والأزمان، واختصرت التاريخ، وتكاد تلغي الجغرافيا، حتى بات الإنسان يرى العالم ويسمعه من مقعده، ولم يقتصر الأمر على اختراق الحدود السياسية، والسدود الأمنية، وإنما بدأ يتجاوزه إلى إلغاء الحدود الثقافية، ويتدخل في الخصائص النفسية، وتشكيل القطاعات العقدية، فيعيد بناءها وفق الخطط

المرسومة لصاحب الخطاب الأكثر تأثيراً، والبيان الأكثر سحراً، والتحكم الأكثر تقنية»[١].

وليس هذا فحسب، بل إن الأمر أصبح يحتل مرتبة هائلة في حياة الدول، لدرجة أن فعل المؤسسات الإعلامية أصبح لا يقل عن فعل الجيوش والأساطيل، تلك التي كانت الدول القوية تفرض رأيها بواسطتها، بل إن «المعركة الحقيقية المستمرة والفاصلة اليوم.. هي معركة الإعلام، بعد أن سكتت أصوات المدافع، وتوارى أصحابها، وأصبحوا لا يُدعون إلى الظهور إلا في الأوقات الاستثنائية التي يغيب فيها الرشد، وتهزم الفكرة، وتنتصر الشهوة، ويرتكس الإنسان إلى حياة الغابة، وحتى في هذه الحالات الاستثنائية، يبقى الإعلام من أخطر أسلحتها أيضاً»[٢].

ويتفق الشنقيطي مع حسنة في أهمية الإعلام وخطورته على حياة الناس وتوجيهه لها في العصر الحديث، ذلك العصر الذي يمكن أن يسمى بحق عصر الإعلام، وقد مكنت له وسائله الضخمة من احتلال مكانة خاصة في قلوب الناس، حتى ليصعب عليهم تصور الحياة وقد خلت من وسائل إعلام تنقل إلى الإنسان تفاصيل الأحداث والوقائع، وشتى الأفكار والاتجاهات والآراء، وصنوف المعرفة، من حيث تصدر إلى حيث تكون، دون أن تحول بينه وبين ذلك عوامل الزمان أو المكان، أو اختلاف اللغات واللهجات، أو حتى مستويات استيعاب الحقائق، أو الإفادة منها، أو التأثر بها»[٣].

---

(١) عمر عبيد حسنة، مقالات في الدعوة والإعلام الإسلامي، كتاب الأمة، رقم ٢٨، رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، قطر، ١٤١١هـ، من المقدمة، ص ص ٨-٩.

(٢) المرجع السابق، ص٩.

(٣) سيد محمد ساداتي الشنقيطي: مفاهيم إعلامية من القرآن الكريم، عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٦هـ، ص ص ٦-٧.

ويؤكد كاتب إسلامي على أن « الإعلام يلعب دوراً مهما في حياة الأمم والشعوب، ولا تكاد تخلو أمة من أمم الأرض، أو شعب من شعوبها من تأثيره، سلبا أو إيجابا، وإن اختلفت سبل وطرق هذا التأثير. . . ويظل الإعلام المعاصر بتقنياته المتطورة، ووسائله المختلفة رمزاً من رموز التحضر، ومعلماً من معالم التقدم بين الأمم، فبه تستطيع الأمة، أية أمة، أن تضاهي بمبادئها وقيمها ومنجزاتها، وعن طريقه تفتح الأمة نوافذ المعرفة وسبل الاتصال، ووسائل التعارف بينها وبين شعوب الأرض »[١].

وإذا كان الراديو قد ربط بين الشعوب المختلفة في نقله للأخبار، وتوصيله للمعلومات، ونشره للمعرفة والآراء المختلفة التي تجود بها قرائح الكتاب والمفكرين فإن التليفزيون قد جاء ليضيف أبعاداً جديدة للعملية الإعلامية، بالصوت والصورة معاً، وليدخل معظم البيوت ضيفاً مرحباً به من الجميع. . كباراً وصغار. . متعلمين وأنصاف متعلمين وأميين[٢].

وإذا كان التليفزيون بالتحديد قد بدأ إرساله، وفي يقين الكثيرين أنه جهاز محلي الإرسال والتأثير، وأن الراديو يتفوق عليه كثيراً في هذا الجانب، حيث إن موجاته، وخصوصا القصيرة منها، تعبر الحدود، وتنتشر في الأثير من قارة لأخري، فإن الأقمار الصناعية قد أعطت التليفزيون هذه الميزة، حيث أصبح الإرسال من أي مكان على وجه الأرض يتم استقباله في أي مكان آخر، بفضل تلك الأقمار الصناعية الدوارة في الفضاء.

وصار الحدث يقع في أي مكان على سطح الكرة الأرضية فيراه الناس في كل مكان وقت حدوثه، دون فاصل زمني يذكر، اللهم إلا بضع ثوان،

---

(١) محمود محمد سفر: الإعلام موقف، تهامة للنشر، جدة، بدون تاريخ، ص١٣.

(٢) محمد عبد العليم مرسي: التربية ومشكلات المجتمع في دول الخليج العربي، مرجع سابق، ص٣٠٨.

هي التي تستغرقها الموجات الإرسالية من موقع الحدث إلى القمر الصناعي في الفضاء الخارجي للكرة الأرضية، ثم إعادة البث من ذلك القمر إلى الجهة المستقبلة في أي مكان على الأرض ثانية[١].

ويربط الدكتور الغنام - رحمه الله رحمة واسعة - بين الإعلام والمعلومات، فيقول: «بات من المؤكد أن الفرد في عالم اليوم لا يمكنه بالخبز وحده أن يعيش إنساناً. وإنما كذلك، وفوق ذلك، بالشعور بقيمته، وبالعمل، وبالحرية، وبالأمل، وبالهدف المشترك، وبالانتماء القوي إلى جماعة، وبالاتصال، وأولاً وأخيراً.. بالمعلومات (وما يبنى عليها أو يتصل بها من قيم).. ومن أجل هذا كله ينبغي أن يكرّس نفسه ويعيش.

لقد طرأ على المعلومات في حياتنا المعاصرة تحولات أساسية نقلتها من مادة نادرة محدودة قابلة للنفاذ، بحكم الاستخدام أو تجاوز الزمن، إلى طاقة متجددة النمو والانتشار بغير حدود. وأصبحت ضرورة ملحة لكل إنسان، أسوة بالماء والهواء والغذاء، حتى إنها إذا حبست عنه، أو تلوثت اعتل واختنق، وأصبح المعيار النهائي لقوة الدول هو ما تملكه من معلومات - كما ونوعا - ومن قدرة على السيطرة على هذه المعلومات، وتوجيهها، والإفادة منها، وما وراء هذه المعلومات والقدرة من تقنية (تكنولوجيا) عقلية متقدمة»[٢].

هذه هي إذن خطورة الإعلام بوسائله، أو بعض خطورتها وبعض أهميتها في حياة الأمم والشعوب.. تأثيراً.. وتوجيها.. وترفيهاً..

(١) المرجع السابق

(٢) محمد أحمد الغنام: التعليم والإعلام من أجل تربية أفضل للمواطن العربي (ضمن بحوث ندوة ماذا يريد التربويون من الإعلاميين)، مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، الجزء الأول، ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، ص٥٣.

وتعليماً . . تفسيراً للأحداث . . ونقدا لها . . توقعاً للنتائج . . وتعليقاً عليها، وكل ذلك من خلال آلاف وآلاف من الكتاب والنقاد، والمعلقين، والمقدمين، بحيث يشغلون أوقات الملايين من البشر، باتساع العالم، وبلغاتهم المختلفة، بل وبلهجاتهم المحلية، على مدار الأربع والعشرين ساعة[١].

ولا شك أننا جميعاً نعلم أن خطورة الإعلام تنبع من أولئك الذين يتولون أمره، فإن كانوا من الملتزمين دينًا، ومن أصحاب العقيدة النقية الذين لا يميلون مع الهوى كانت رسالتهم لجماهيرهم الذين يستمعون إليهم، أو يقرأون لهم، أو يشاهدونهم، أقول كانت رسالتهم هذه هي رسالة التربية الإسلامية الصحيحة التي تأخذ بيد أفردا مجتمعها، وتقودهم إلى طريق الخير والرشاد والهداية.

وإن كانوا عكس ذلك، أي من ذوي الفكر المنحرف، والذين يبثون أفكاراً ومذاهب مخالفة لدين أمتهم، ولهديها الذي نشأت عليه فإن أثرهم يكون محطماً للأمة، بل مدمراً لها، حيث يستخدمون تكنولوجيا العصر في مجال الإعلام، في عكس الأهداف التي توقعتها منهم أمتهم.

إن الإعلام المنحرف هو إعلام ضال مضل، لافتقاده العناصر الأخلاقية التي تجعله مقبولاً . . ومحترماً . . وبناء، وهذا ما يدعو بدوره إلى الإشارة إليه بأصابع الاتهام، كما يدعو للتحذير منه ومن مخاطره، وينادى بالوقوف في وجه أضاليله وأكاذيبه، ويطالب بالإفلات من أضاليله؛ لأنه كثيراً ما يمزج السم بالدسم، والحلو بالعلقم، والغث بالسمين[٢].

---

(١) محيي الدين صابر، حوار مع الأميين حول قضايا الأمية والمواجهة الشاملة، مجلة تعليم الجماهير، الجهاز العربي لمحو الأمية وتعليم الكبار، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، بغداد، العددان ٣٣-٣٤، ديسمبر - يناير ٨٧/ ١٩٨٨م.

(٢) محمد عبد العليم مرسي، التربية وكارثة غزو الكويت، مرجع سابق، ص ص ٣٦٦-٣٦٧.

ومن المؤسف حقا أن أكثر القائمين على شؤون الإعلام في معظم بلاد الإسلام هم ممن لا رأي لهم، ولا عقائد سليمة نقية، مما يجعل وسائل الإعلام التي يقومون على شؤونها تابعة تبعية عشوائية للنظم السياسية، فإذا دعا النظام السياسي للاشتراكية مثلاً كانت وسائل الإعلام أول من يصفق ويهلل للاشتراكية ويدعو إليها، وإذا اتجه إلى الرأسمالية أو الشيوعية راحت وسائل الإعلام تختلق المبررات لذلك، وتقنع القراء بأن الإسلام لا يناقض الشيوعية، بل إن المسلمين كلهم يسار، ومما يزيد الأمر خطورة أن بعضا من أعلام المشايخ ومغموريهم يقعون فريسة لمثل هذه التيارات، بقصد أو بغير قصد[١].

إننا إذا آمنا - كما يقول مالك بن نبي، مفكرنا المسلم، رحمه الله رحمة واسعة، بأن كل ما يغير النفس يغير المجتمع[٢]، وأدركنا خطورة الإعلام بكل وسائله، وبأنه يعتمد، بالدرجة الأولى، على توعية البشر الذين يتولونه وأجهزته في المجتمع، فإن كانوا صالحين صلح بهم، وإن كانوا فاسدين فسد بهم.

إن واحداً من كبار التربويين في العالم العربي لا يرى الإسهامات المطلوبة من الإعلام في الجانب التربوي مجرد خدمة، أو مكرمة يؤديها الإعلام لأمته العربية، فتشكره عليها، أولا يؤديها فتغض الطرف عنه.. وعنها.

إنه يراها واجباً لا مناص منه، وفرضاً واجباً، لا يمكن للإعلام، ولا ينبغي له، أن ينفلت منه، وذلك بحكم طبيعة المشكلات التربوية المتعمقة في

---

(١) مروان كجك: الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتليفزيون، دار الكلمة الطيبة، القاهرة، ١٤٠٧هـ، ص ص ١٢-١٣.

(٢) محمد أحمد الغنام، مرجع سابق ص ص ٦٤-٦٥.

العالم العربي، بل والآخذة في الاتساع، يوماً بعد يوم، يقول الغنام:

«إن ظروف المنطقة العربية.. التربوية والثقافية والاقتصادية.. تفرض على نظم الإعلام فيها أن تضاعف مسئولياتها وجهودها التربوية في هذه المرحلة لتعوض قصور التعليم في نمطه النظامي التقليدي، عن صنع مجتمع متعلم عربي، خلال العقود القليلة القادمة، ولتعين هذا التعليم على تطوير نفسه وإثراء عمله.

ولكي تتضح لنا تفاصيل صورة التعاون بين نظم التعليم والإعلام، في الدول العربية نستعرض باختصار قائمة الحاجات التعليمية لمجموع هذه الدول، لنرى أين يمكن لنظم الإعلام أن تسهم في سدها[1]:

* يوجد قرابة ٩٠٪ من أطفال الأمة العربية (سن ٣-٥سنوات) دون حضانة، أو رياض أطفال، وإذا طرأ تحسن على هذه النسبة، خلال السنوات القادمة، فسيكون محدوداً في معظم الأحوال.
* يوجد أكثر من ثلث أطفال الأمة العربية (سن٦-١٤سنة) أي أكثر من خمسة عشر مليون طفل وطفلة، خارج المدرسة، أي دون تعليم نظامي كليا.. أو جزئيا، وكثير من هؤلاء الأطفال ينتمون إلى أوساط وبيئات أقل حظا.. اجتماعيا وثقافيا واقتصاديا وجغرافيا، وهم لا يستجيبون للتعليم النظامي بمحتواه وتنظيمه الحالي، حتى إذا وصل إليهم أو أصبح قريباً منهم.
* يوجد أكثر من ثلاثة أرباع شباب الأمة العربية (سن ١٥-١٧) سنة خارجة المدرسة الثانوية بمختلف أنواعها، ومع التسليم بتوقع حدوث انخفاض

---

(١) المرجع السابق.

في هذه النسبة خلال العقدين القادمين، بسبب التوسع في فرص تعليم ما فوق المرحلة الأساسية، فإن نسبة لا يستهان بها، وبالتالي ملايين الشباب (سن١٥-١٧) سنة ستبقى بغير تعليم ثانوي.

* يوجد حوالي ٩٠٪ من شباب الأمة العربية (سن ١٨-٢٤سنة) دون تعليم عال أو جامعي، ولن تنخفض هذه النسبة بدرجة كبيرة خلال العقدين القادمين.

* يوجد عجز ملح في إعداد الفنيين والمعلمين ومستويات كفاءتهم.

* يوجد قرابة نصف مجموع أفراد المجتمع العربي (فوق سن١٥) سنة. أميون*.

* الطاقة العاملة العربية، وبخاصة تلك التي تتحرك في البلدان العربية، ومن العالم العربي إلى الخارج، ينقص معظم أفرادها التعليم والمهارة.

* يوجد نقص كبير في الدول العربية، بوجه عام، في برامج تعليم الكبار التي تساعدهم على مواكبة تطورات العصر، وتطوير أعمالهم ووظائفهم[1].

ويخلص الغنام إلى أن كل هذه الحاجات، لا يمكن للتعليم النظامي وحده أن يسدها على المدى القريب (عام ٢٠٠٠ أو يزيد قليلاً) بأساليبه وتنظيماته التقليدية أو المحسنة، ومن هنا تأتي ضرورة مساهمة وسائل الإعلام في عملية المواجهة الشاملة، وهي مساهمة لا بد وأن تكون ذات

(١) المرجع السابق، ص ص ٦٤-٦٥.

(*) يحسن مراجعة الكتاب القيم: قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر، لمؤلفه د. زغلول راغب النجار، كتاب الأمة، قطر، ١٤٠٩هـ؛ حيث فيه نسب مخيفة عن حجم الأمية في عالمنا الإسلامي الذي نزل القرآن على صدر نبيه منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان وأول كلمة فيه: اقرأ!

قيمة وفاعلية كبيرة، بحكم طبيعة هذه الوسائل، من حيث قدرتها على تجاوز حدود الزمان والمكان، وعلى استخدامها طرقاً متعددة في التعبير والتأثير في الناس.

وفي الوقت نفسه فإن رفع كفاءة النظم التعليمية القائمة وتحسين جودتها، وتجديد أساليبها ووسائلها يتطلب من نظم الإعلام العون والمساعدة ببرامج تعليمية مدرسية، شريطة أن تكون هذه البرامج أكثر من تسخير إمكانات هذه النظم - أي الإعلام - في خلق بيئة تعليمية أكثر فاعلية وحيوية داخل المدرسة، بل وفي إخراج المدرسة من عزلتها عن المجتمع والحياة[١].

الإعلام والتربية:

ويربط كاتب واع بين الإعلام والتربية، مبيناً الوشائج القوية بينهما، وكذا الأرض المشتركة التي يعملان عليها، وموضحاً أن التربية في جوهرها عملية «اتصال» وأن الإعلام كذلك في جوهره ومظهره عملية اتصال، وأن التربية في بعض جوانبها عملية إعلامية[٢]. أما البدر فيربط بين التربية والإعلام، بطريقة أكثر تفصيلاً، مبينا الأهداف المشتركة التي تجمع بينهما بالشكل التالي:

١ - كلاهما يهدف إلى خدمة المجتمع، وإلى المحافظة على القيم والمبادئ التي يؤمن بها، ويعمل على تثبيتها والمحافظة عليها. فالتربية تعمل على

---

(١) محمد أحمد الغنام، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٢) محيي الدين القلا: دور وسائل الإعلام في تعزيز التربية المستمرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، العدد الثاني، السنة الأولى، يوليو ١٩٨٠م.
- هاشم السيد أمين العلوي: الحاجة للتعليم المستمر، ودور وسائل الإعلام في تحقيقه، التربية المستمرة، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، العدد ١٢، السنة الثامنة، يوليو ١٩٨٧م.

تحقيق ذلك بما تقدمه من مناهج وعلوم لنقل التراث، وتهيئة الأجيال لمستقبل أفضل، والإعلام يعمل على تحقيق ذلك بما يقدمه للجماهير من مواقف زاخرة بالقيم والمعايير، سواء أكان ذلك في صورة واقعية أو خيالية، أم في صورة ممزوج فيها الواقع بالخيال، فإن لذلك كله تأثيراً قويا في قيم الأفراد واتجاهاتهم وأفكارهم.

٢- وكلاهما يهدف إلى المحافظة على ثقافة المجتمع وشخصيته، وكل ما هو أصيل في ماضيه وتاريخه، ويتفاعل مع مشكلات المجتمع، ويسعى لحل المعضل منها، ويقدم كل ما يستطيع لينعم المجتمع بالحياة الرغدة في حاضره، مؤثراً في عصره، ومتأثرا به، ويؤهله للمستقبل بما يتلاءم معه.

٣- وكلاهما يهدف إلى (التعليم والتعلم)، فكما أن ذلك واضح في التربية، كما يتضح من قربته للاسم من خلال التنظير العلمي. . ومن خلال التطبيق العملي. . ومن السهل أن ندرك التماثل والتطابق بين ما يقوم به الإعلام، وما تقوم به التربية، إذا عرفنا أن التعليم في المدرسة تدخله ستة عناصر، لها ما يقابلها في الاتصال الجماهيري، لعناصر التعليم المدرسي الستة هي:

أ- فرد.

ب- يخضع لإثارة (من خلال المدرس أو الوسيلة).

جـ- إدراك الفرد للإثارة.

د- تفسيره إياها.

و- تأكيد الاستجابة الأولى باستجابة ثانية.

أما عناصر الاتصال الجماهيري الستة فهي:

أ- مرسل، (هو المثير).

ب- رسالة (هي إدراك المثير أو حركة الإثارة).

جـ- فك (الكود)، وهو تفسير الإثارة.

د- مستقبِل، (هو الفرد).

هـ- الاستجابة العلنية للمثير.

و- الاستجابة المؤكدة (رجع الصدى) وهي (الاستجابة التي تتوقف على نتيجة الاستجابة الأولى لتؤكدها، أو تنفيها)[١].

أهمية الإعلام في حياة الأمة :

بات من المسلم به أن الأمة، أية أمة، لا تستطيع أن تعيش دون أن تعطي قضية الإعلام ووسائله ما تستحقه من اهتمام، وذلك من منطلق أهميتها، بل وخطورتها على حياة أبناء هذه الأمة. ولعلنا نلمس - خلال الصفحات القليلة القادمة- عدد امن النقاط التي تتعلق بهذه القضية :

أولاً: لقد أصبح الإعلام علماً له مقوماته، ومعاهده، وشروطه، وتقنياته، ومتخصصوه، ومستلزماته وأدواته، كما أصبح ثمرة يشارك في إنضاجها كثير من المعارف والعلوم، وتوظف لها أرقى الخبرات، وصناعة من الصناعات الفكرية الثقيلة التي لها مؤسساتها وخططها ونفقاتها، بل لعل نصيب الدعم الإعلامي في كثير من الدول اليوم من الميزانيات يفوق الدعم الغذائي، الذي به قوام الحياة، ولئن كان الإعلام في الماضي يوظف ليكون أداة ترفيه وترويح وتسلية، يعيش على هوامش المجتمع وفي خارجه فإنه اليوم في صميم المجتمع، يوظف الترفيه والتسلية لأداء رسالة، وإيصال

(١) حمود بن عبد العزيز البدر، الحاجة إلى تنسيق وتكامل إعلامي تربوي بين دول الخليج العربي، رسالة الخليج العربي، العدد ٣١، السنة العاشرة، ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، ص ص ٩٢-٩٣.

فكرة، وتشكيل عقل، وصناعة ذوق عام وزراعة اهتمامات معينة، حتى إنه لم يعد يكتفي برصد الحدث، وإيصال المعلومة، بل أصبح - بما يمتلك من قوة وعوامل تأثير وحفظ وتحكم - يقوم بصنع الحدث، والتحضير له في الوقت نفسه[١].

ثانياً: إن الدول النامية متخلفة في حقيقة الأمر في كثير من مرافق حياتها ومؤسساتها. وإطلاق مصطلح التخلف عليها، أو لفظة «النامية» تأدباً، معناه أن المحصلة النهائية لكل أنواع التخلف بها نصيب من هذا الوصف، فهي متخلفة في التعليم بكل أنواعه ومراحله، كما أنها متخلفة في الاقتصاد بقطاعيه العام والخاص، وهي متخلفة في شؤونها الإدارية وبيروقراطيتها المتحكمة، كما أنها بطبيعة الحال متخلفة في سياساتها الزراعية والصناعية والتجارية.

وهذه الدول من الظلم أن ينتظر منها تقدم في مجال الإعلام ووسائله؛ إذ هي انعكاس لكل ما سبق، حيث نجد إعلامها تابعاً لإعلام غيرها من الدول يستعير برامجه منها بنسب عالية، ويبث منها على مواطنيه، وفي كثير من الأحيان بدون فحص أو تمحيص، ومن هنا نجد هؤلاء المواطنين وهم يعيشون واقعاً مأساوياً في حياتهم العملية الواقعية.. كل يوم، بينما يجلسون في أمسياتهم ليحلقوا مع إعلام دول غيرهم.. يحلقون في أفلام ومسلسلات لا تمت لواقعهم بصلة!

ومن مآسي هذا الإعلام المختلفة أننا نجد المسؤولين عنه لا يستوردون لأبناء مجتمعاتهم إلا التافه من الأمور، وإلا السطحي من الأفلام والمسلسلات التي لا تعالج قضية من قضاياهم، ولا تتعرض لمشكلة من

---

(١) عمر عبيد حسنة، مرجع سابق، ص ٩.

مشكلاتهم، فيبدو العالم أمام مواطنيهم وكأنه ليس لديه شيء يصنعه سوى الفساد والضحك والرقص، أما الجد والعمل، أو العلم والبحث والاختراع، أما المعالجة الجادة للمشكلات التي تواجه الأمة، فالإعلام بعيد عنها، ولا دخل له بها، ولو أنهم دروا ما يقوم به الإعلام والتربية في مواجهة كل هذه الأمور - في الخارج - لتغيرت نظرتهم لهما، ولتغيرت الدنيا من حولهم*.

ثالثاً: لا بد أن ندرك الأبعاد المتعددة والخطيرة للعملية الإعلامية، تلك التي تبدأ بالتسلل إلى داخل الأمة فتخترقها، ثم تعمل على التحكم فيها، واحتوائها، وبذلك تلقي القبض على عقلها، وعواطفها واهتماماتها، فتعيد تشكيلها وفقاً للخطط المرسومة. وأخطر ما في الاختراق والتحكم الإعلامي، أو الاحتواء الإعلامي توهم الأمم المخترقة أنها تمتلك إرادتها، وتصنع رأيها، وتتخذ قرارها بنفسها، دون أن تشعر بأنها إنما تدور في الفلك المرسوم لها، وتحرك بأجهزة (الريموت) التحكم من بعد[(١)].

رابعاً: حسبنا أن نعلم أن الحصار الإعلامي اليوم - قبل مرحلة البث المباشر المنتظرة التي تنوي الدول القوية زراعتها فوق رؤوسنا، وتسليطها على حواسنا حيثما كنا - يطبق علينا من كل جانب، وأن الاستهلاك الإعلامي في العالم الإسلامي للمواد المصنعة في الخارج يزيد على ٨٠٪ من المطروح يوميا، بينما لا يصل الإنتاج الإعلامي المحلي، في أحسن الأحوال، إلى ٢٠٪، ويأتي هذا في معظمه محاكاة لأفكار وإنتاج وإخراج الدول المتحكمة إعلاميا. . وشأننا في ذلك شأن الإنسان الاستهلاكي لأشياء الحضارة،

(*) يمكن لمن أراد القراءة حول هذه المعاني أن يرجع لمقال المؤلف «العالم يضحك. . والعالم يغني» وهو منشور في مجلة الفيصل»، العدد ١٩٣، رجب ١٤١٣هـ، يناير ١٩٩٣م.

(١) عمر عبيد حسنة، مرجع سابق، ص ١٠.

العاجز عن إنتاجها، الذي سوف ينتهي، شاء أم أبى إلى لون من الارتهان الإعلامي والثقافي والحضاري؛ ذلك أن الإعلام لم يعد يقتصر على إيصال المعلومة، وإنما هو يساهم في تشكيل الإنسان، وتحضيره لقبول المعلومة التي يريد، دون أن يدع له الفرصة لفحصها واختبارها، لقبولها أو ردها.

خامساً: لا تخرج العملية الإعلامية في عمومها عن غيرها من عمليات التحكم المتعددة التي تمارس من عالم الأقوياء على عالم الضعفاء والمتخلفين، للحيلولة دون ردم فجوة التخلف، وإلغاء التبعية الفكرية، والإعلامية، والثقافية، والسياسية، والاقتصادية.. فالقدرات والقابليات الإعلامية المبدعة التي قد تشكل الأمل للخروج من دائرة التحكم لا تجد لها مكاناً ولا مناخاً في العالم الإسلامي، لذلك نرى استمرار نزف الطاقات، وامتصاص تلك القدرات المبدعة، الأمر الذي يجعل العالم الإسلامي خاصة، والعالم الثالث بشكل عام، صدى لأفكار الغرب، ومنتجاته الإعلامية التي تمهد لتسويق أفكاره وأشيائه معاً، ويستمر الفقر الإعلامي، والفقر الفكري، إلى جانب مظاهر الفقر الأخري.

إن الطاقات المبدعة على المستوى الإعلامي وغيره، لا يمكن أن تستنبت في أجواء القمع والإرهاب، والاستبداد السياسي، والظلم الاجتماعي التي يكرسها الإعلام الأقوى، وغياب الحرية، وحقوق الإنسان التي تمثل الشروط الطبيعية والضرورية للنمو والإبداع، ذلك أن من لوازم الطرد من هنا، والجذب من هناك، إشاعة مناخ الاستبداد والقمع، وتضييق فرص الحرية هنا، وإتاحتها هناك[1].

---

(١) المرجع السابق، ص١١.

سادساً: لعل مشكلة أو كارثة النزيف البشري Bain Drain ، أو هجرة العلماء من العالم الإسلامي تمثل قمة مآسي دول ذلك العالم، حيث هاجر عشرات الآلاف منهم من بلادهم، بغرض العمل، والإقامة هناك في بلاد المتقدمين، فأضافوا بذلك قوة للغرب، وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية، إلى قوته، وضاعفوا من حجم قوة العمل الرفيعة المستوى، خاصة في مجالات البحث والتطوير Research and Development، تلك القوة التي تعتمد عليها الدول المتقدمة فيما تنتج من علم وتكنولوجيا تسود بها العالم، بينما حرمت مجتمعاتهم من تلك الجهود، فعملوا بذلك، ربما دون أن يقصدوا، على اتساع الفجوة بين بلادهم والبلاد التي هاجروا إليها[(١)].

ولقد كانت تلك الظاهرة مفهومة ومدروسة، رغم مأساويتها، خاصة وأن أسبابها تعود إلى أسباب عرفت ودرست علميا، وأرجعتها إلى عوامل جذب Pulling Factors في بلاد العالم المتقدم تغري العلماء بالهجرة إليها، وعوامل دفع Pushing Factors في مجتمعاتنا، تمثلت في الاضطهاد السياسي، وعدم وضع العلماء في أماكنهم التي يستحقونها، وعدم الاهتمام بالبحث العلمي ولا بنتائجه، وعدم تشجيع العلماء على العمل في مجالات ذلك البحث المختلفة. . . إلخ ولكن الشيء الجديد والمحزن هو ما اصطلح على تسميته بـ «هجرة الأجنة»، أي قبل الولادة «فلعل من أعز الأماني أن تلد الأمهات أجنتها في أوربا وأمريكا لاكتساب الجنسية، التي تمكن من الارتحال إلى هناك في قابلات الأيام، كما يقول حسنة[(٢)].

(١) يمكن الرجوع في هذا لكتاب المؤلف: هجرة العلماء من العالم الإسلامي، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٤هـ، وكذا: نزيف العقول البشرية، عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٢هـ، وهو للكاتب كذلك.

(٢) عمر عبيد حسنة، مرجع سابق، ص ١١.

إن هذه القضية إذا كانت قد أخذت شكل الظاهرة، ونعتقد أنها فعلت، فهي مبنية على إحساس خطير، مؤداه شعور الذين يفعلون ذلك بأنهم فقدوا الثقة في موطنهم الأصلي، وبأنهم لا يأمنون على مستقبل أبنائهم في ذلك الموطن، بل إنهم يتوقعون الأسوأ، بحيث لا يسعف هؤلاء الأبناء إلا طلب الحماية من دول غير دولهم، وطلب الظل تحت أعلام بلاد أخرى!

لقد لاحظنا عند دراستنا لظاهرة هجرة العلماء، في داخل الولايات المتحدة الأمريكية، أن بعض الذين هاجروا إلى هناك فكر بعض منهم في العودة لموطنه الأصلي، بعد أن أحس بخطورة المجتمع الأمريكي على أبنائه، خاصة فيما يتعلق بقضايا الدين والعقيدة والقيم والأخلاق، أما اليوم فالحديث عن تخطيط لمستقبل هؤلاء الأطفال، وهم ما يزالون في أرحام أمهاتهم، للعيش في بلاد العالم المتقدم!

إن هذه الجراحات النفسية والثقافية العميقة التي لحقت بالأمة لا بد لها من رجال دعوة مؤهلين يحتسبون أجرهم عند الله، كما لا بد لها من إعلام مؤثر ومخطط، ومدرك تماماً للساحة التي يعمل فيها، والمخاطر التي تحيط به من الخارج، ليكون قادراً على معالجتها، ومن ثم تتحقق القدرة على التعبير عن رسالة الإسلام بثقافته وحضارته وعطائه للإنسانية، متجاوزاً الصورة المنفرة التي عليها المسلمون[1].

سابعاً: من خطورة وسائل الإعلام المنحرفة أنها تشكك في القيم والمبادئ الإسلامية، كما يقول سفر، ولم يعلن ذلك مباشرة، بل تسلل في غفلة من فطنة المسلمين، ومن خلال ضعفهم إلى بعض العقول والنفوس، تحت

---

(١) المرجع السابق، ص ص ١١-١٢.

شعارات مختلفة ، مثل دعاوى الحرية والتقدم والتمدن، وأظهروا الإسلام وكأنه لا يؤيد كل ذلك، ولا يحث عليه، وبلغ الأمر حدا من التضليل أصبح معه المسلم الملتزم ينعت بالتخلف والرجعية وضيق الأفق، ولاقت تلك الشعارات من يدعمها ويؤيدها من بعض من أوكل إليهم أمر المسلمين، فحققت لها ما تصبو إليه من السيطرة على الرأي العام وتوجيهه وشغله بما يلهيه . . .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل ساعدت بعض وسائل الإعلام على نشر دعوات وجودية وأخرى إلحادية، وإن كانت تسمى بغير أسمائها، وحتى يكتمل المخطط عززت كثير من وسائل الإعلام غوايتها للمرأة العربية المسلمة عن طريق بعض ذوات التفكير المريض من بنات جنسها اللاتي روجت أفلامهن بضاعتهن الفاسدة، وقيمهن الهابطة، وحصرت المرأة في إطار بيوت الأزياء العالمية، وتغيير الموضة من عام إلى آخر، وتقلصت ثياب المرأة، فأصبحت تظهر من جسمها أكثر مما تخفي، الأمر الذي حدا بكثير من العائلات الإسلامية أن تمنع دخول كثير من المجلات التي تدعي أنها تعنى بالأسرة وشؤونها إلى بيوتها، وخاصة إذا كانت تضم شباباً في سن المراهقة[1] .

لقد زخرفت وسائل الإعلام جميع القيم الهابطة والمبادئ الرديئة في عيون أبنائنا وبناتنا، فما عادت تجدي النصائح أو القيم التربوية التي يمليها البيت وتغرسها المدرسة، وذلك للتناقض الذي يحسه النشء، بين ما يشاهد ويسمع ويقرأ في وسائل الإعلام، وما تقدمه المدرسة ويقوم به المنزل؛ فقد ذهبت هيبة الأب، وأصبح من الممكن أن يكون في عقول الصغار خائناً أو

---

(١) محمود محمد سفر، الإعلام موقف، مرجع سابق، ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، ص ص ٥٢-٥٣ .

قاتلاً أو مزوراً. أما المدرسة فهي حائرة بين ما تلقنة للنشء من مبادئ وقيم، وما يتلقاه أولئك عن طريق وسائل الإعلام.

ثامناً: ومن أخطر ما أصيبت به الأمة الإسلامية - وخصوصا في المنطقة العربية - أن دينها ذاته قد تعرض للاعتداء من جانب وسائل الإعلام، حيث زينت للشباب صورة المتدينين - غالباً- في صورة هزلية أو صور قميئة، وأحياناً في الفترة الأخير في صورة الشخص الإرهابي الذي لا يفقه من أمور الدين شيئاً.

« أما الدين فيتمثل في وسائل الإعلام، والمرئية منها على وجه الخصوص، بذلك الرجل الهزلي الذي يرتدي ملابس معينة، وينطق اللغة العربية بطريقة تثير الضحك، وهو إما شحاذ أو منافق، أو متكالب على الدنيا في أغلب الأحيان، كما صورت وسائل الإعلام ذاتها الرجل المؤمن الملتزم بصورة شخصية ضعيفة ومهزوزة تردد بعض الآيات القرآنية والحكم والمواعظ، بطريقة تدعو للسخرية، ولا تدل على مظهر من مظاهر القوة المحكمة وبعد النظر والاتزان»[٢٤].

ولم تكتف وسائل الإعلام بتشويه الحاضر، وإنما امتدت يدها في خبث لنشوة الماضي، تشوه التراث الذي تحتفظ الأمة الإسلامية به وتتمسك، والذي هو أساس وحدتها وتماسكها، فهي - أي وسائل الإعلام المغرضة - لم تنس أن تطعن المسلمين في تراثهم وتاريخهم الذي يفخرون به، فهي إما أن تدعو إلى نبذه وإهماله، بحجة أنه مظهر من مظاهر التخلف والانحطاط، واستبدال الحضارة الغربية المعاصرة الحديثة به، أو هي تعمل على إخراجه وإظهاره بصورة مشككة ومهزوزة ومليئة بالخلط والتشويه

(١) محمود محمد سفر، مرجع سابق، ص ٥٣.

والمغالطات والتزوير، ومثال ذلك كتابات جورجي زيدان في التاريخ الإسلامي، والمسلسلات والمسرحيات التي يقوم فيها ممثلون بدور الشخصيات الإسلامية العظيمة لتظهر ممسوخة ومهزوزة ومشوهة، إما لأن الممثلين لا يؤمنون بالعقيدة التي يمثلون أدوار شخصياتها، أو أن الهدف من التمثيل هو الربح التجاري، ولا تهم النتيجة، ويا ليتهم ما فعلوا، فلقد كانت تلك الشخصيات في نفوسنا ونفوس أبنائنا أكبر من تلك الشخصيات الهزيلة التي أظهروهم بها، ناهيك عن خيال المؤلف الذي يضيف أو يحذف من الحقائق التاريخية وغيرها مما يعجبه أو يروق له، ولكي يحسن بضاعته فإنه يمزجها ببعض التوابل العاطفية، وقصص الحب، وأدى كل ذلك إلى ظهور عدد من المسلسلات عن التاريخ الإسلامي تحكى القصة الواحدة بأكثر من طريقة وأسلوب حتى غدت وكأنها «حدوتة» تقال، كيفما تراءى للمؤلف، والنتيجة بلبلة المشاهد، والصغار على وجه الخصوص[1].

تاسعاً: بلغ من سطحية بعض وسائل الإعلام التي تصور في بلاد عربية إسلامية أن خصصت بعض الصحف زوايا وأركاناً للإسلام والثقافة الدينية، تنكمش وتتسع حسب الظروف والمناسبات، بينما أفردت تلك الصحف جل صفحاتها للفن والرياضة والأخبار السياسية بصورة مركزة ومشوقة، مما يكرس - ولو مظهريا- ازدواجية الخط الفكري العام، وينتج عنه ضعف الحصيلة الثقافية الإسلامية عند النشء، بجانب انتشار بعض الأحاديث النبوية الموضوعة والحقائق المزيفة، وبرز إلى جوار ذلك زوايا خصصتها بعض الصحف والمجلات المأجورة لتسفيه آراء الجماعات الإسلامية، والاستهزاء بأفكارهم، وإظهارهم أمام القارئ في أسوأ صورة،

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٤٥-٥٥.

وأقبح منظر من حيث التصرفات والأخلاق.

ونتيجة لكل ذلك نشأ جيل، بل أجيال، تعرف عن الإسلام أفكاراً ومعتقدات خاطئة، ترى في الدين تزمتاً، وفي الالتزام تطرفاً، وساعد على ذلك وكرسه، كما يبدو، عدم مواكبة الفكر الإسلامي لسرعة العصر، وتطور أحداثه، فأصبح الفكر في واد، وممارسات المجتمع في واد آخر، ولم يتحسن الفكر في الحقيقة في كل ذلك وسط أقلام تستأجر هنا وهناك[1].

عاشراً: من مآسي الإعلام، في عالمنا العربي، بعده عن تحري الصدق والتزام الموضوعية، والهبوط إلى مستوى المهاترات التي تكاد تكون شخصية، وعدم التفرقة بين مصلحة الأمة، ومصالح الأفراد ونزاعاتها الشخصية، مما أدى بالكثيرين إلى الانصراف عن ذلك الإعلام، حتى إننا لو سألنا أنفسنا عن أي الإذاعات نصدق، وأيها نثق في أخباره لجاءتنا الإجابة بإذاعة غير عربية على الإطلاق.!

إن عدم تحري الدقة في الخبر أدى إلى ظهور المقولة المشهورة «كلام جرائد»، حتى لقد أصبح ما يقال غير ما ينفذ في أغلب الأحوال، وحتى غدا الكذب ظاهرة ملموسة في الإعلام العربي، ويكفي أن يعود الإنسان بذاكرته للأيام المحزنة التي رافقت الهزيمة الكارثة عام ١٩٦٧م أمام قوات العدو الصهيوني.

لقد كانت إذاعة «صوت العرب» من القاهرة تزف البشائر لمستمعيها في أنحاء الأمة العربية بقرب دخول قواتنا منتصرة مظفرة إلى «تل أبيب»

---

(١) المرجع السابق، ص ص ٥٥-٥٦.

عاصمة الكيان الصهيوني، بينما كانت قوات ذلك العدو تتوغل في أراضينا، وداخل حدودنا. وكانت تزف إليهم خبر إسقاط طائرات العدو بالعشرات، كل يوم، بينما كانت مطاراتنا الحربية كلها قد هوجمت، ودمرت الطائرات فيها، وأعطبت ممراتها بحيث ما عادت تصلح على وجه السرعة، وتحير المواطن العربي، بين إذاعة تكذب عليه وتدغدغ مشاعره بنصر مكذوب، وبين إذاعات تقول بغير هذا تماماً، وعلى طول الطريق.

وكأن الأمة العربية لم تتعلم شيئاً على مدار أكثر من عشرين سنة، فحين غزت قوات صدام حسين الكويت في يوم أسود (٢ من أغسطس ١٩٩٠م) راح الإعلام العراقي يزين الحدث الكئيب لأبناء الأمة المسكينة، حتى التبس الأمر على الكثيرين منهم، وحتى ما عادوا يميزون بين الصدق والكذب*، خاصة حينما تبودل السباب والشتائم بين النظم السياسية.

يقول سفر: «وقد ظهر الكذب بوضوح في الفكر السياسي الذي تبنته وسائل الإعلام في العالم العربي والإسلامي، حيث اعتمدت أسلوب التجريح والسب، وأصبح المقال السياسي هجوماً سافراً، وكأنه إعلان مدفوع القيمة، وأصبحت الحملات الإعلامية على عدو سياسي تستخدم الألفاظ البذيئة، ما وجد منها في القاموس العربي، وما لم يوجد، ثم ما تلبث الصورة أن تنقلب عندما يصبح هذا العدو صديقاً، فتتحول الشتائم إلى مديح، ويتبدل السباب إلى ثناء، وتضيع الحقيقة في كل ذلك وسط أقلام تستأجر هنا وهناك.

(*) يمكن لمن أراد الاستزادة حول هذا الموضوع مراجعة كتابي المؤلف:
- غزو الكويت كارثة المسلمين الجديدة، عالم الكتب، الرياض، ١٤١٢هـ.
- التربية وكارثة غزو الكويت، هجر للطباعة والنشر، القاهرة، ١٤١٢هـ.

هل من الغريب حقاً أن يقال: إن هناك نظرية تسمى نظرية الدفاع الخارجي وهي أن تشتري دولة ما صحيفة أو مجلة تصدر خارج حدودها تكون مهمتها الهجوم والتجريح في دولة أخرى. لقد تكلمت وسائل الإعلام في العالم العربي كثيراً حول كل شيء، لكنها لم تقل أي شيء ففقدت الثقة في نفسها قبل أن يفقدها الغير فيها[١].

حادي عشر: يبقى في النهاية أن نقول بأنه إذا كان الإعلام - في عالمنا العربي والإسلامي - سيئاً فهو ليس نشازاً في ذلك، وليس مختلفاً عن كثير من مؤسساتنا؛ إذ من المعروف أن المجتمع - ككل - يفرز مؤسساته، وهي كلها تكاد تتشابه في أوضاعها، ومن الصعب أن تكون بعض مؤسساته متقدمة جدا، والأخرى متخلفة. يقول حسنة: «وتكاد تكون أزمتنا الأساسية واحدة في حقيقتها، وإن اختلفت مظاهرها، وتعددت آثارها من موقع إلى آخر عندما ننظر إلى قضايانا، ذلك أننا لا نعترف بمسؤوليتنا عما لحق بنا ولا نواجه ما أصابنا بجرأة وشجاعة، لنكشف مواطن التقصير، ونحدد أسباب القصور لنستدركها، وإنما لا نزال نلقي بالتبعة على الآخرين الذين هم دائماً سبب بلائنا ومصائبنا جميعاً، لنعفي أنفسنا من المسؤولية، دون أن ندرك أننا نلغي أنفسنا وأهليتنا في التعامل مع العصر الذي نعيشه.. فلو جئنا نعرض لمظاهر السيطرة على وسائل الإعلام من قبل المؤسسات التنفيذية والصهيونية والعلمانية والإلحادية لكان عندنا الكثير الذي نقوله، والمزيد من الشعارات التي نرفعها في هذا المجال، أما حين نقوم بعملية مراجعة بسيطة لما قدمنا، أو ما يمكن أن نقدم في هذا المجال، فتخفت أصواتنا وتتقزم قاماتنا، وتتضاءل حصيلتنا حتى تكاد تصبح صفرا. أو ما يعادل الصفر. وما أسهل أن نصنع

---

(١) محمود محمد سفر، مرجع سابق، ص ص ٥١-٥٩.

المسوغات لما نفعل، ونعايره بمعايير غريبة وعجيبة ومضحكة. وذلك عندما نحكم عليه بأنه أفضل من لا شيء، دون أن ندري أننا نسويه ونقايسه بالعدم!

وما نستطيع أن نقول إننا حتى هذه اللحظة، وعلى الرغم من كل الهزائم الإعلامية، والتحكم الإعلامي، ما نزال نمتلك من وسائل الإعلام، في تعددها وتنوعها وقدرتها على التأثير، مالا يمتلكه أحد، لكن يبقى السؤال المطروح هو: كيف يمكن لنا أن نعيد لها الحياة، والتأثير والقدرة على التغيير[1].

(١) عمر عبيد حسنة، مرجع سابق، ص ١٢.